ولا تضمروا شيئاً إلا بنظر ، وتدبير ، وإن كان محموداً عند الإله سبحانه وتعالى فبادروا فعله ، وما كان مذموماً فجانبوه ، وما خفى عليكم معرفته فكِلُوه إلى العالم به ، وقِفوا عنه حتى يأتى الله بعلمه وبيانه . فإنه بغلنا أن رسول الله ﷺ قال : « **أحَبّ البرية إلى الله – عز وجل – من لم يقدم قولا ، ولا فعلا ، ولا يدا ، ولا رجلا ، ولا بطشا ، ولا نية إلا بنظر ، وتدبير فإن كان لله فيه رضى أمضى ، وإن كان غير ذلك أمسك** »[١٣٠]. ألا فتشبهوا بأولى الألباب والنُهى ، وأهل الورع والتُقى ، وتأدبوا بآدابهم تجدوا به عِزّاً يوم الحساب ، وفقنا الله ، وإياكم لكل خير برحمته .

الباب السادس عشر
المصيبة فى تضييع حقوق الله

إخوانى : هذا – والله – الطريق إلى الله فتمسكوا بما وصفت لكم ، واعتقدوه فى قلوبكم ، وابنوا عليه أعمالَكم ، وجاهدوا فى القيام به أنفسكم ، فإنى أرى النفس الأمارة مجمعة على تضييع أمر الله عز وجل ، فراقبوا الله ، ولا تهملوها فيمحق دينكم ، ويؤتى عليكم ، وما تشعرون . وبعد فليس برشيد من ضيع ما تسمعون ، وإن حقوق الله لأكثر من ذلك ، وأكبر فإن أظهرتم العجز عن القيام فلا أقل من الحزن الدائم العظيم ، لأن المصيبة فى تضييع حقوق الله ، وقد أحْسَبُ حزنكم لمصائب الدنيا أكثر من حزنكم لمصائب الدين . فإنا لله وإنا إليه راجعون . المصائب تترى ويَعلو بعضها على بعض ، ستبدو عواقبها عند الورود غداً ، وفقنا الله وإياكم لكل خير برحمته إنه سميع الدعاء ، وبيده الخير ، وهو على كل شىء قدير ، والسلام عليكم ورحمة الله ، وبركاته ، وأزكى تحياته . فلما انقضى كلام عبد الله – رحمة الله عليه ورضوانه – أقبل عليه أهل الأنس به فقالوا له : أيها الأخ المحتاط لإخوانه إنك لم تأل فى النصح ولم تقصر فى النظر ، وإن الذى أنهيت إلينا هو الحق الذى لا محيص عنه فقد ثبتت به الحجة ، واتضح به منار الهدى ووجب علينا العمل به ، والله المعين على ذلك ، والموفق له ، فجزاك الله المنان بالنعم ، أفضل جزاء العاملين له ، ولقد سمعناك تصف قوما بأحلام راجحة ، وعقول كاملة ، وأخلاق كريمة ، وأعمال صالحة ، ومعرفة بالنعم ، واجتهاد فى الشكر ، ومبالغة فى حرجات الصدق ، ورغّبتنا

---

(١٣٠) لم أجده .

فى أفعالهم ، ووصفت لنا قوماً عملوا بالبِر جميعا ، كلهم بالسّوَاء ، وبعضهم أعلى عند الله من بعض ، وأوزن أعمالا من بعض ، ونعت قوما بجهل عظيم ، وأعمال فظيعة ، وسرائر خبيثة ، وكفران النعم ، ونهيتنا عن مذاهبهم ، ووصفت أنفساً والهة بزهرات العاجل[١٣١]، وحذرتنا من أمثالها ، ووضحت لنا خفيات مكائد الشيطان ، وخوفتنا منها ، وأخبرتنا بوسواس النفوس ، تخطر على أنفسنا ، وقد وجدنا صدق وصفك فى الآفات فينا ، ورأينا الفساد فينا ممزوجا بأعمالنا ، ونرى أنفسنا غايتها أهواء غالبة ، وعدو لطيف الحيل قد غدى بإغوائنا يشجع على فعل كل شيء مذموم ، ويزينه لطائف التمويه ، ويثبط على كل فعل محمود ، ويمزجه بخفايا المكائد . فإن رأيت أيها الناصح لإخوانه : أن تُحَدّدَ لنا صفاتٍ من آداب الدين محمودة حتى نستعين بها على مكارم الأخلاق بيننا ، وتصف لنا أحوال الشَّكُورِ من العباد ، وأحوال الكَفُور ، وأحوال أهل الوَرع والصدق ، وتصف جرائم أهل الرياء ، والعجب ، عسى الله أن يذهب الجهل عنا ، ويشرح لنا بمعرفتها صدورنا ، ويلين بها قلوبنا ، ونجاهد بها العدو عن ديننا ، ونخالف بمعرفتها أهواءنا وعسى الله أن يصلح بها بعض داء نفوسنا مع قديم ما أجرى الله على لسانك لنا . قال لهم – عبد الله رحمة الله عليه ورضوانه –: إخوانى : إن لكم حقوقا واجبة ، وقد وجب لكم على أكثر من ذلك فرغبتكم واستزادتكم من معرفةمحابِّ ربى – عز وجل – فإنكم تسألون عن علم خفى فى الصدور مخزون لا يعلمه إلا العلماء بالله . لذلك بلغنا « أن رسول الله ﷺ قال : « **إن من العلم ، علما مكنونا ، أو قال : مخزونا – لا يعلمه إلا العلماء بالله فإذا انطلقوا به لم يجهله إلا أهل الاغترار بالله فلا تحقروا عبدا آتاه الله علما ، فإن الله لم يحقره إذ آتاه إياه**[١٣٢] **ألا وإنى لمؤد إليكم بعضَ مافتح الله لنا من ذلك ، وأستهدى الله تعالى وأسترشده .**

الباب السابع عشر
سر التفاوت بين العاملين بالبر وتفاضلهم
وجواهر من الآداب

إخوانى : اعلموا أن الكلام كثير ، وفنون العلم غير محدودة ، وخير القول

(١٣١) متعلقة بزهرة الحياة الدنيا .

(١٣٢) أورده الغزالى فى الإحياء عن أبى هريرة ، وقال الحافظ العراقى : حديث أبى هريرة بإسناد ضعيف ، انظر الإحياء (٣٥/١) .

ما ابتغى به وجه الله تعالى ، وأفضل العلم ما عمل به لوجه الله تعالى ، فأنصتوا لما سألتم عنه ، بآذان واعية ، وأفئدة حاضرة ، وقلوب فهمة لخزائن العلم محتملة ، وعلى العلم مضمرة ، وبالعلم بالله عالمة عاملة ، وفقنا الله وإياكم لذلك . فأما ما سألتم عنه من أحوال قوم عملوا بالبر جميعا بالسواء ، وبعضهم عند الله أعلى ، وأوزن أعمالا من بعض ، لقد بحثتم عن علم كبير ، ووصف كثير ، وتفاوت بين العباد بعيد ، وسأصف بعض أحوالهم بمن الله وإرشاده ذلك بأنهم تفاضلوا بالعلم ، وحسن النية ، وصدق اللسان ، والورع ، فإن للأعمال حدودا وعلى العامل فيها شروطا ، والعبد إذا كان جاهلا بحدود أعمال ، أو آداب الدين لم يتوجه لتحرى مسرات الله تعالى ولا لإجابة الحق فى عمله ، ولا فى نيته ، وكذلك إذا جهل أدواء النفوس ، ومكائد الشيطان ، ولم يتوق على أعماله ، ولم يحسن أن يتحرز من أعداء دينه ، ونفسه ، وعدوه ، ويزينان له أمور دنياه عن آخرته ، ويرغبانه فيما وافق هواه ، وفيما يزينه للناس ، ويشينه عند ربه عز وجل ، والعبد منقاد لهما[١٣٣] ، وذلك أنه مستور عنه ما حل به من مكائدهما ، فيعمل فى أعمال البر بقلة العلم وضعف الرأى فمرة يجهل ، وأخرى لا يصيب ، ومرة عليه ومرة ليس عليه ، فهذا وإن أكثر من التطوع فهو خفيف الوزن منقوص عن درجة العارفين . وأما الآخر : فإنما أوتى العقل ، والمعرفة فاتفقت أحواله ، وخالف هواه ، وجاهد عدوّه ، ووضع الأشياء بعلمه موضوعها ، وأجرى الأمور بعقله مجاريها ، وتحرى مسرات الله بمحموده فيها ، ووقف بتقواه عما اشتبه عليه منها ، والتمس علم ما لم يعلمه ليعمل به ، واختيار أعمال البر أفضل النية ، وأعلى الإرادة ، وأوفقها لمحبة الله عز وجل ، فجعل أصح النية أساساً ، وبنى عليها أعمال البر ، ووقاها من التزين ، والآفات جهده ، وأسّرها من العباد حياته فهذا وإن قل تطوعه فهو أوزن عملاً ، وأعلى قدراً ، والقليل من أعماله كثير ، وسأصف لكم بمنّ من الله تعالى ، جواهر من الآداب ، وحسن النية ، والتحرى لمسرات الله عز وجل ، فاعْتقِدَوها فى السرائر ، واجعلوها أساساً ، وابنوا عليها أعمال البرّ ، ففيها الحزم ، والفضل العظيم ، ويؤخذ عنها عند تحصيل ما فى الصدور . وبلغنا أنه يخرج من تحت العرش صحف بيض وهى النيات . وبلغنا أن بعض أهل العلم قال : « **تعلموا النية فإنها أبلغ من العمل** ». وقيل « **نية المؤمن خير من عمله ولكل امرىء**

---

(١٣٣) لنفسه وشيطانه .

مانوى »[١٣٤]. وفى قوله عز وجل ﴿ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ ﴾[١٣٥]، قال : على نيته[١٣٦]. وبلغنا أن رسول الله ﷺ قال : « **إن الملائكة ليصعدون بعمل العبد من عباد الله فيستقلونه ، ويحقرونه حتى ينتهوا به حيث يشاء الله تعالى ، فيوحى الله تعالى إليهم : إنكم حفظة على عمل عبدى ، وأنا رقيب على ما فى نفسه ، فضاعفوا له ، واكتبوه فى عليين** »[١٣٧]. وبلغنا أن بعض أهل العلم قال : « **إن الله – عز وجل – ليعطى العبد على نيته مالا يعطيه على عمله** »[١٣٨]. وأن النية لا رياءَ فيها والعمل قد يُخالطه رياء[١٣٩].

الباب الثامن عشر
الرغبة فى العلم المفترض

فإذا رغب الناس فى فنون العلم فاجعلوا اعظم الرغبة فى العلم المفترض على العباد . فإنه بلغنا أن رسول الله ﷺ قال : « **طلب العلم فريضةٌ على كل مؤمن** »[١٤٠]. ياقوم فقدموا النية فى تعلم حدود الفرائض ، ومعرفة الحلال والحرام ، والورع ، والإخلاص لله فى الأعمال ، والتمسوا علم ذلك بمجهودكم ، فإن الجاهل بحدود

---

(١٣٤) أخرجه البخارى فى صحيحه ، بلفظ « إنما الأعمال بالنيات ، ولكل امرىء ما نوى » ، انظر صحيح البخارى كتاب بدء الوحى ، باب رقم (١) ، وإيمان باب رقم (٤١) ، ونكاح باب رقم (٥) ، وطلاق باب رقم (١١) ، وعتق باب (٦) وأيمان (٢٣) ، ومسلم فى صحيحه كتاب الإمارة ، حديث رقم (١٥٥) ، وأبو داود فى سننه ، كتاب الطلاق باب (١١) ، والترمذى فى صحيحه كتاب فضائل الجهاد وقال : حديث حسن صحيح ، انظر صحيح الترمذى (١٥١/٧ ، ١٥٢) ، والنسائى فى سننه كتاب : طهارة(٥٩)، والطلاق (٢٤) ، والأيمان (١٩) ، وابن ماجه فى سننه كتاب الزهد حديث رقم (٤٢٢٧) ، وأحمد فى المسند (٢٥/١ ، ٤٣ ، ٦٠) كلهم عن عمر بن الخطاب .

(١٣٥) الإسراء : ٨٤ .

(١٣٦) أخرجه هناد ، وابن المنذر عن الحسن – رضى الله عنه – انظر الدر المنثور للسيوطى (١٩٩/٤) .

(١٣٧) أخرجه أحمد فى المسند من حديث البراء بن عازب بنحوه (٢٨٧/٤) ، وأورده الغزالى فى الإحياء ، انظر الإحياء (٢٦٩٥/٥٠) .

(١٣٨) أخرجه ابن المبارك فى الزهد ، عن ابن المبارك قال : سمعت جعفر بن حيان يقول وذكر الحديث ، انظر الزهد لابن المبارك حديث رقم (١٨٩) .

(١٣٩) أورده الغزالى فى الإحياء ، قاله عكرمة ، انظر الإحياء (١٨٧٢/٤) .

(١٤٠) أخرجه ابن ماجه فى سننه عن أنس بن مالك ، انظر سنن ابن ماجه مقدمة حديث رقم (٢٢٤) ، وابن عبد البرّ فى « جامع بيان العلم وفضله » باب طلب العلم فريضةٌ على كل مسلم (٧/١) ، وأورده الغزالى فى الإحياء (١٥/١) .

الدين عمىّ عن سبيل الرشاد ، متقلب فى ضد السداد ، متلون فى فنون الفساد . وقد بلغنا أن رسول الله ﷺ قال : « **لو أن جاهلا فاق المجتهدين فى العبادة كان ما يفسد أكثر مما يصلح** »[١٤١]. وإلا فمتى جهلتم حدود الدين خَسِرْتم ، ومتى علمتم ما افترض عليكم وعملتم به سعدتم فهذا فضل مابين الرجلين . أحدهما – يلتمس فنونا من العلم لا فقر به إليها[١٤٢]، ولا يؤاخذ فى القيامة بترك معرفتها ، لكنه يسأل عنها ، وعن نصبه[١٤٣] فى طلبها ، وماذا أراد بمعرفتها ؟ فإما للتقرب إلى الله تعالى أراد ذلك ، وإما لمعانى الدنيا وأهوائها . والآخر – يطلب علم حدود الفرائض التى يسخط الله على من ضيعها . وبعد : فإذا أحكمتم علم الفرائض ، فالتمسوا من فنون العلم أوفقها لمحبة الله عز وجل ، وأعظمها فى الدين نفعا ، وفقنا الله وإياكم لكل خير برحمته.

الباب التاسع عشر
اجعلوا أعظم الرغبة فى اكتساب العقل

إخوانى : وإن اكتسب الناس فى أنواع البر ، فنافسوهم فيها ، واجعلوا أعظم الرغبة فى اكتساب العقل ، فإن أولياءَ الله تدبروا ، وتفكروا ، ونظروا ، واعتبروا ، وبالعقل رغبوا ، ورهبوا ، وزهدوا ، وانتقلوا إلى الرشد ، وعَلَوْا به فى الدرجات . وبلغنا أن رسول الله ﷺ قال لعلى : « **ياعلى إذا اكتسب الناس أنواعَ البِرّ ليتقربوا بها إلى ربهم فاكتسبْ أنواعَ العقل تَفُقْهُم بالزّلفةِ ، والقربة ، والدرجات فى الدنيا والآخرة** »[١٤٤]. وبلغنا عنه عليه السلام قال : « **لا يَقْبلُ الله صلاةَ عبدٍ ، ولا صَوْمَه ، ولا حَجّه ، ولا عُمْرَته ، ولا صدقته ، ولا جهاده ، ولا شيئاً مما يكون من أنواع البر ، إذا لم يكن يعقل** »[١٤٥] . وبلغنا أن الله عز وجل « **لما خلق العقل قال له : اقعد فقعد ثم قال له : قم فقام ثم قال له : أدبر فأدبر ثم قال له : أقبل فأقبل**

---

(١٤١) أورده الغزالى فى الإحياء بلفظ « إن قليل العمل ينفع مع العلم بالله ، وإن كثير العمل لا ينفع مع الجهل بالله » ، انظر الإحياء (١٢/١) .

(١٤٢) لا حاجة لها بها .

(١٤٣) تعبه .

(١٤٤) أخرجه أبو نعيم فى حلية الأولياء عن عاصم بن ضمرة، انظر الحلية (١٨/١) وأورده الغزالى فى الإحياء (١٤٦/١ ، ١٤٧) .

(١٤٥) أورده العجلونى فى كشف الخفاء بلفظ « لا دين لمن لا عقل له » ، حديث رقم (٣٠٦٥) .

ثم قال له : انظر فنظر ثم قال له : تكلم فتكلم ثم قال له : أنصت فأنصت ثم قال له : اسمع فسمع ثم قال له : افهم ففهم ، ثم قال له : وعزتى ، وجلالى ، وعظمتى ، وسلطانى ، وقدرتى على خلقى ما خلقت خلقاً هو أكرم علىَّ ولا أحب إلىَّ منك ولا أفضل عندى منك بمنزلة لأنى بك أعرف، وبك أُعبد ، وبك أُحمد ، وبك آخذ ، وبك أُعطى ، وبك أعاقب ، ولك الثواب وعليك العقاب »(١٤٦) فقد خص الله تعالى العقل بالكرامة وحباه بأمر عظيم وجعل العاقلين أعلى درجةً ، وأشرفها فى الدنيا والآخرة . وبلغنا عن بعض الصحابة أنه قال : « **لأن يزداد عقلى كل يوم مقدارَ ذَرةٍ أحب إلىَّ من حطم السيوف فى سبيل الله تعالى بنفسى ومالى وإعطائى المال سخاء فى أصناف المعروف وفى الصدقات** . » . ألا فمن رغب منكم فى العقل ، وأراد السبيل فى اكتسابه فإن أفضل ما تستفيد بالعقل أن تطيع الله فيما افترض عليك ، وتجنب ماحرم الله عليك ، فمتى فعلت ذلك أخذت من العقل بنصيب ، فبذلك جاءت الآثار . « **أن العاقل من أطاع الله ، ولا عقل لمن عصاه** »(١٤٧). وبعد فإن أردت العلو فى درجات العقل ، ورغبت فى مزيد الفوائد من الله عز وجل ، فكن بخلاف الناس فى فعلهم ، فإن الناس إنما عصوا الله عز وجل ، بما أنعم عليهم من صحة الجوارح ، والأرزاق المتواترة ، وغيرها ، من النعم المتظاهرة ، فبها قووا على معاصى الله . أخى : فاستَحِى أن تعصيَه بنعمةٍ ، وكن من أهل الكرم ، والشكر ، واستعمل نعمه لديك فى مسرات المنعم بها شكراً لِما أوْلاَكه مولاك – فورب البرية – لئن استقمت ، واستعملت نعم الله تعالى فى مسراته ، لترتقين فى درجات العقل إلى محض الإيمان ، وخالص الدين ، وصدق اليقين . ولترتقين إلى صحة المعرفة ، بعظمة الله ، وكبريائه ، وجلاله ، وعظيم قدرته سبحانه وتعالى . ولترتقين إلى صدق الحياء من الله تعالى ، وشدة الهيبة له ، والرغبة فى رضوانه . ولترتقين فى الصبر على بلاء الله والتسليم لأمره ، والرضا بقضائه ،

---

(١٤٦) أخرجه أبو نعيم فى الحلية عن عائشة (٣١٨/٧) ، وابن أبى الدنيا فى « العقل وفضله » عن أبى هريرة حديث رقم (١٤) ، وأورده الغزالى فى الإحياء : كتاب العلم ، باب فى العقل وشرفه ، وقال الحافظ العراقى : حديث أول ما خلق الله العقل قال له أقبل ... الحديث : أخرجه الطبرانى فى الأوسط من حديث أبى أمامة ، وأبو نعيم من حديث عائشة بإسنادين ضعيفين، انظر الإحياء (١٤٢/١) ، وابن الديبع فى تمييز الطيب من الخبيث ، وقال : قال ابن تيمية وأتبعه غيره . إنه حديث موضوع كذب باتفاق ، انظر تمييز الطيب من الخبيث لابن الديبع حديث (٢٩٨) .

(١٤٧) أورده الغزالى فى الإحياء كتاب العلم باب فى العقل وشرفه (١٤١/١) .

والسرور بنظره لك واختياره . ولترتقين فى صحة التعظيم لله ، والإجلال له ، والثقة به ، والطمأنينة إليه ، والاعتماد عليه ، والأُنس به ، والحب له ، والشوق إليه على حسب ماعقلت من عظمته ، وعظيم قدرته سبحانه . فذلك – والله – أعلى الدرجات ، وأوزن من عبادة المجتهدين أعمالاً ، فهذا فضل مابين الرجلين . أحدهما – يعمل بالبرّ قليل العلم بفوائد العقل . والآخر – يتحرى بعقله مَسرّات الإله ، ويعتقد فى الضمير موافقة الله سبحانه فيما يحب ويكره ، فيرق بها فى الدرجات ، وأيها درجات !، وهبنا الله ، وإياكم ، علماً نافعاً ، وعقلاً راجحاً .

الباب العشرون
جاهدوا أنفسكم على حب ما يحب الله

إخوانى : فإذا رأيتم الناس يبغضون مايحب الله ، ويكرهون منافعهم فى الآخرة ، ألا فراقبوا الله تعالى ، وكونوا بخلافهم ، وجاهدوا أنفسكم على حب ما يحب الله ، فقد يحسب قوم أنهم يحبون مايحب الله ، وليسوا هم كذلك، ولكنهم كارهون لكثير من محابّ الله عز وجل ، مُبغضون لكثير من منافعهم فى الآخرة فتدبروا أمركم . ما قولكم فى امرىء عالم قيض الله له عالما ناصحا يرشده لمحاب الله عز وجل ، ويبصره عيوبَ نفسِه ، ويدله على طريق الإنابة منها لينتقل عن طريق الغىّ إلى الرشد ، وذلك من محاب الله عز وجل ، والجاهل يأنف أن يُخبر بعيوبه ، أو يعلم أحد مساوئه ، فيجِد[148] فى نفسه على من أحب رشده ، ولا يعلم أنه واجد على من قُيّضَ له ! الناصح المرشد رأفة به ، وهو يستثقل الناصح استثقالاً شديداً ، ويتمعض[149] من إرشاده إياه ، وما يشعر ، وكذلك امرؤ لطف به رحمة له منه بعبده فصرف عنه فتنة الجاه ، أن يكون فى الناس مشهورًا يشار إليه ، ويوطأ عقبه متبوعاً معظماً فسلمه من فتنة ذلك ، وجعله خامل الذكر ، إن غاب لم يفتقد ، وإن حضر لم يعرف ذلك أسلم لدينه ، وذلك من منن الله عز وجل عليه . وبلغنا : أن الله عز وجل يقول فيما يُعَدّد من أياديه : « **عبدى ألم أُخمِل ذكرك فى الدنيا نظراً منى إليك** »[150] والمفتون مغموم بصغر قدره عند الناس ، محزون ، مخمول ذكره ،

---

(١٤٨) يجد : يحقد ويضمر الكراهية .

(١٤٩) تمعض من الأمر : غضب وشق عليه ومنه الامتعاض .

(١٥٠) أورده الغزالى فى الإحياء (١٨٣٩/٤) .

كارّه لنظر الله له ، واختياره له ، وما يعرف ذلك من نفسه . وكذلك امرؤ نظر الله له فصرف عنه فتنة المال أن يطغى به ، ويشتغل بدنياه عن بعض أمور الآخرة ، فجعله الرءوف به : قليل المال ، رخى البال ، سليم الدين ، قليل التخاليط ، خفيف الثقل ، قليل الوقوف ، يسير الحساب ، قليل المساءلة ، سريع العبور على الصراط ، وكل ذلك رأفة من الله تعالى به . وبلغنى : أن الله تعالى يقول : « **يحزن عبدى أن أصرف عنه الدنيا ، وذلك أقرب مايكون منى ، وأحبّ مايكون إلى ، والعبد يحزن بصرف الدنيا عنه ، كأنه يكره حبّ الله عز وجل ، وما يشعر لكنه يتشاءم بقلة المال ، ويتطير من صنع الله له ، وما يعقل ماحل به** »[١٥١]. فمثل هذا كثير يحبه الله عز وجل ، ويحب من يحبه ، والعبد يبغض ذلك كله ، أعاذنا الله ، وإياكم من بغض محّابه .

الباب الحادى والعشرون
خالفوا من يحبون ما أغضب الله

إخوانى : وإذا رأيتم الناس يحبون ما أبغض الله عز وجل ، فقد يحسب أقوام أنهم يبغضون ما أضَرّ بدينهم ، وليس كذلك ، ولكنهم يحبون ما أغضب الله ، ويفرحون بما أضر بدينهم ، فكونوا بخلافهم . ما ظنكم بامرىء وإلهٍ بحب الثناء ، والتعظيم ، والعلو فى الدنيا ، والله يبغض ذلك ، ويبغض من أحبه ، والجاهل يتمنى الذى أبغض الله من التعظيم ، والغلو كأنه محب لبغض الله إياه ، وما يشعر أعاذنا الله ، وإياكم من ذلك . وكذلك : امرىء مشغوف بحب المال ، والتكاثر والزينة فى الدنيا والله عز وجل يبغض ذلك ، ويبغض من أحبه . وبلغنا : أن الله عز وجل ثناؤه يقول : « **يفرح عبدى أن أوسع عليه فى الدنيا ، وذلك أبعد ما يكون منى وأبغض مايكون إلىَّ** »[١٥٢]. والعبد يتمنى الذى أبغض الله كأنه محب لبغض الله إياه ، وما يشعر فمثل هذا كثير يبغضه الله ، ويبغض من أحبه ، والعبد مشغوف بذلك ، فهذا فرق مابين الرجلين . أحدهما : مسرور بنظر الله له يحب ما أحب الله ، ويبغض ما أبغض الله عز وجل ، والآخر : مبغض لكثير من محاب الله – عز وجل – محب لكثير من مكاره

---

(١٥١) أخرجه الترمذى فى صحيحه بنحوه ، وقال : حسن غريب (٨/١٨٨ ، ١٨٩) ، والديلمى فى الفردوس حديث رقم (٩٧١) .

(١٥٢) سبق تخريجه وانظر السابق .

الله – عز وجل – مشغوف بكثير مما أضر بدينه كاره لكثير من منافعه فى الآخرة ، محزون لصنيع الله له ، وما يعقل ما حل به من ذلك ، فكفى بهذه مصيبة حلت بعبد يمسى ، ويصبح دهره مبغضا لما يحب الله محباً لما أبغض الله مصرًا على ذلك عمره ويحك ! لقد انتهى فى مخالفة الله عز وجل ، وفى عداوة نفسه لو كان يفقه . إخوانى : فراقبوا الله عز وجل ، ولا تتكلوا على العبادة مع الإصرار على حب ما أبغض الله – عز وجل – وجاهدوا أنفسكم على مخالفة الهوى ، وموافقة الله – عز وجل – فيما يحب ، ويبغض ، وإن ذلك واجب ، وثوابه جسيم ، والخطر فى تضييعه عظيم ، فكفى به إثما أن يحب الله أمرًا فتكرهوه ، ويبغض أمراً ، وتحبوه خلافاً من المخلوقين على الخالق ، والله عز وجل مطلع على ذلك من قلب العبد ، تعالى الله – عز وجل – ما أحلمه على عبد علم ذلك من ضميره وياها من فتنة قد حلت بأكثر من نرى إلا قليلاً . عصمنا الله ، وإياكم بما عصم به أولياءه آمين يارب العالمين .

الباب الثانى والعشرون
الخشوع فى الصلاة

إخوانى : فإذا أحضر الناس فى الصلاة أبدانهم ، وتخشعوا بالجوارح ، وقلوبهم ساهية عن ربهم فى الخشوع ، ألا فراقبوا الله ، وأحضروا القلوب مع الأبدان ، وقوموا لِلّه مقام العبيد بين يدى أربابهم ، بخشوع ، وهيبة واستكانة ، وتعظيم فقد يعظم بعضكم بعضا ، وتقنتون لمخاطبة العبيد تعظيماً ، واستحياء ، أو رجاء أو مخافة . أيها الناس : أفليس الله عز وجل أولى بالتعظيم ، والاستحياء منه سبحانه وتعالى ؟ ياقوم : أفجهلتم فضل الله عز وجل على العباد ؟! فلم لا تعظموا الجبار عز وجل ؟ بأكثر من تعظيمكم المخلوقين ؟ فلا أقل من أن تُنْصِتُوا ويحكم لكلام الله – عز وجل – كما تنصتون لكلام العبيد ، كى لا يكون الرب – عز وجل – أهون عليكم من عبيده تعالى الله عن ذلك . ألا فراقبوا الله . إخوانى : واعرفوا قدر من قمتم به ، وعظموه ، وهابوه . فقد روى عن بعض أهل العلم فى قوله عز وجل : ﴿ **وَقُومُواْ لِلَّهِ قَانِتِينَ** ﴾[١٥٣] . قال : القنوت : الخشوع فى الركوع ، والسجود ، وغض البصر ،

---

(١٥٣) البقرة : ٢٣٨ .

وخفض الجناح من رهبة الله عز وجل[١٥٤]. وكان العلماء إذا قام أحدهم للصلاة هاب أن يلتفت ، أو يعبث بشيء ، أو يُحَدّثَ نفسَه بشيء من شأن الدنيا إلا ناسيا[١٥٥]. وبلغنا عن بعض أهل العلم قال : « **ركعتان خفيفتان مقتصدتان فى تفكر خير من قيام ليلة ، والقلب ساهٍ** »[١٥٦]. وبلغنا أن بعض أهل العلم قال : « إن القوم يكونون فى الصلاة الواحدة ، وأن بينهم من الفضل مابين السماء ، والأرض ، إن الرجل خاشع مقبل على الله سبحانه ، والآخر ساهٍ » . وبلغنا أن الرجل إذا قام للصلاة ، وقال الله أكبر أتاه الشيطان فقال له : اذكر كذا ، اذكر كذا ، وذكره حوائجه ، وفتنه وذكره شغله فيقول له الملك : أقبل على صلاتك ، والملك يناديه فى أذنه اليمنى ، والشيطان يناديه فى اليسرى ، وقلبه ينازع إلى الأمرين فإن أطاع الملك ضرب الملك بجناحه الشيطان ، وأخساه ، وإن أطاع الشيطان قال له الملك : سُحْقا سحقا أما إنك لو أطعتنى لم تقم من صلاتك إلا وقد غفر الله لك كل ذنب » . وبلغنا أنه « **ليس للعبد من صلاته ، إلا ما عقل منها** »[١٥٧]. وبلغنا عن بعض أئمة الهدى أنه قال : « **إذا كان أحدكم فى الصلاة فيجعلها من همه ، وليقبل عليها ، ولا تكونوا كالفرس على رأس مخلاة فارغة : يرفعها ، ويحطها ، ولا شيء فيها** » . ألا فكونوا وَجِلين من الاستهانة بأمر الله ، كى لا تنقلبوا من الصلاة خائبين ، أعاذنا الله ، وإياكم من ذلك . فهذا فرق ما بين رجلين . أحدهما – فى الصلاة ، وقلبه مع بدنه لاهٍ عن الله سبحانه وتعالى ، والآخر حاضر قلبه مع بدنه هائب الله تعالى فى مقامه ، ألا فراقبوا الله . إخوانى : وجاهدوا أنفسكم على إحضار القلوب فى الصلاة ، ولا يغرنكم أولياء الشيطان فإنهم يحضرون أبدانهم فى الصلاة ، ويلهون قلوبهم فى أباطيل الدنيا ، وأمانيها ، ثم يطلبون المعاذير لأنفسهم ، ويزعمون أن خيار الصحابة – رضى الله عنهم – قد سهوا فى الصلاة يريدون أن يُعذروا بذلك أنفسهم فى الغفلة عن الله عز وجل ، باغتياب الأخيار ، ولئن كان الذكر لسهو الصحابة داخلا فى الغيبة لقد بكوا به مع الغفلة عن

---

(١٥٤) أخرجه ابن جرير فى تفسيره عن مجاهد ، انظر تفسير الطبرى (٣٥٤/٢) ، وسعيد بن منصور ، وعبد ابن حميد ، وابن المنذر ، وابن أبى حاتم ، والأصبهانى ، والبيهقى ، انظر الدر المنثور للسيوطى (٣٠٦/١) .

(١٥٥) انظر الدر المنثور للسيوطى (٣٠٦/١) .

(١٥٦) أخرجه ابن المبارك فى الزهد حديث رقم (٢٨٨) . أورده الغزالى فى الإحياء : قاله ابن عباس رضى الله عنهما ، انظر الإحياء (٢٧٠/١) .

(١٥٧) أورده الغزالى فى الإحياء (٢٨٥/١) .

الله – عز وجل – باغتياب الأخيار . ياقوم إن الصحابة كانوا إذا بلوا بالسهو تعاظموا ذلك ، وأشفقوا منه ، ولم يرضوا به من أنفسهم . وبلغنا أن رسول الله ﷺ وبخ قوماً على سهوهم فراعهم ذلك كثيراً واستدركوا السهو بالمراجعة إلى الذكر ، وبذلوا المجهود فى إحضار القلوب ، والفهم عن الله عز وجل ، والهيبة له ، ولم يعذروا أنفسهم ، كما تعذرون أنفسكم ، ولم يطلبوا الحجج والمعاذير كما تطلبون . وبعد أفتحسبون أن غفلة الصحابة ، وفكرتهم فى الصلاة كانت على حساب غفلتكم ، ومثل فكرتكم فى البيوع ، والخصومات ، والأمانى ، والخسارات . لئن ظننتم ذلك بهم لقد أسأتم الظن ، وازدريتم على سادات الأمة إذ شبهتموهم بأنفسكم . ولئن ظننتم أن غفلتكم فى الصلاة قليلة على حساب غفلة الصحابة فلقد أحسنتم الظن بأنفسكم ، ورفعتموها إلى درجات الأولياء ، بئسما سولت لكم أنفسكم ! أما انتهى إليكم أنه قيل لبعض التابعين : إنا نجد وسوسة فى الصلاة فقال : أنا أجد ذلك ! فقيل له : ما الذى تجد ؟ قال : أجد ذكر الجنة والنار ! وكأنى واقف بين يدى ربى فقالوا : إنا نجد ذكر الدنيا ، وحوائجها فقال : لأن أُخِرَّ من السماء إلى الأرض أحب إلىَّ من أن يعلم الله ذلك من قلبى ، فهكذا الأخيار . ياقوم ، فتدبروا ما دهاكم من الشيطان حين ألهى قلوبكم فى الصلوات عن الله عز وجل ، ثم زين لكم الاحتجاج بسهو الأتقياء ، ويحكم لو رجعتم بالازدراء على أنفسكم عند الغفلة ، واعترفتم بإساءتكم ، وتضرركم لكان أقرب لكم إلى العفو من طلب الحجج وذكر سهو الأخيار . وبعد فهلا تستعظمون سهوكم كما استعظم الأخيار سهوهم . ولقد بلغنا أن بعض الصحابة كان يصلى فى نخيل له فشغل بالنظر إلى النخيل ، فسها فى صلاته ، فاستعظم ذلك ، وقال : أصابتنى فى مالى فتنة : فجعل النخيل فى الأرض صدقة فى سبيل الله فبلغ ثمنه خمسين ألفاً[١٥٨] فمن منكم استعظم سهوه ، فتصدق بقيراط ؟! أفٌّ لكم أما تستحيون من هذا القياس وتقولون : إن غفلنا فى الصلاة فقد غفل الصحابة ؟ تشبهون أنفسكم بهم ! ياقوم ، ما أقبح قياسكم ، وأدحض حجتكم ! وبعد : فهلا تأسيتم بخشوع خيار هذه الأمة ، ومثل تعظيمهم لأمر الله عز وجل . لقد بلغنا أن بعضهم كان فى صلاته ، كالثوب الملقى ، وبعضهم كالخشبة اليابسة ، وبعضهم ينفتل من صلاته متغير اللون لقيامه بين يدى الله – عز وجل – وبعضهم لم يكن يعرف من على يمينه ، وشماله ، وبعضهم كان إذا قام إلى الصلاة ،

---

(١٥٨) أورده الغزالى فى الإحياء ، كتاب الصلاة ، باب أسرار الصلاة ، انظر الإحياء (٢٩٥/١) .

كأنه عودٌ من الخشوع[١٥٩]. وبلغنا عن بعض أئمة الهدى[١٦٠] أنه كان إذا توضأ للصلاة ، رؤى فى وجهه التغير يصفر مرّةً ، ويتلون أخرى ، فقيل له : ياأمير المؤمنين إنا نراك إذا توضأت للصلاة تغيرت أحوالك ؟ قال : إنى أعرف بين يدى من أقوم[١٦١]! وبلغنا عن بعض التابعين أنه كان إذا قام إلى الصلاة تغير لونه ، وكان يقول : أتدرون بين يَدَى من أقف ؟ ومن أناجى[١٦٢]؟ فمن منكم لله فى قلبه مثل هذه الهيبة ؟! ولقد بلغنا أن من تعظيمهم لأمر الله أن أحدهم كان إذا فاتته التكبيرة الأولى عَزّوه بمصيبته ثلاثة أيام ، استعظاماً منهم لفوت صلاة فى جماعة فبالله أكذلك أنتم ؟! ياقوم إذا فاتكم التكبير مع الإمام أو فاتكم بعض أعمال البِرّ بلى لعمرى هل يُعَزّونكم ؟! بل إذا أصيب أحدكم فى ماله فتلك المصيبة العظمى يعزى بعضكم بعضا بمصائب الدنيا ، وتستغيثون منها وتسخطون من قدر الله لها ، وتشكون إلى الناس فعل الله ! فأما فوت أعمال البر ، ومُوَاقَعة الذنوب فما أرى بعضكم يعزى بعضا ، كأنهاليست من المصائب عندكم ، هيهات ما أبعد شبهكم بخيار السلف ! ويحكم تركتم التَأَسّى بفضائل الأتقياء ، وتَحْتَجّون بزَلّة كانت منهم كأنكم فى الزلل ، والسهو مثلهم ، كذبتم – وبارىء النفوس – ياغافلين . ألا فراقبوا الله ، وذروا طلب المعاذير ، والحجج الداحضة ، وجاهدوا أنفسكم على إحضار القلوب فى الصلاة ، والفهم عن الله عز وجل ، والتعظيم لأمره كى لا تنقلبوا من الصلاة خائبين جعلنا الله وإياكم من العاملين الهائبين له آمين .

الباب الثالث والعشرون
الصيام عما حرمه الله

إخوانى : وإذا صام الناس عن الطعام والشراب ، ألافقوا صومكم عن الإفطار على الحرام ، وتحرزوا من الآثار المضرة بالصيام . فإنه بلغنا أن رسول الله ﷺ قال : « **الصائم يدع قول الزور ، والغيبة ، والنميمة ، والكذب ، والجهل ، والخَنَا**[١٦٣]،

---

(١٥٩) أورده الغزالى فى الإحياء ، مما يروى عن الصحابة ، والتابعين ، انظر الإحياء للغزالى (١/٢٧٠ ، ٣٠٣) .

(١٦٠) يقصد على بن أبى طالب رضى الله عنه . (١٦١) أورده الغزالى فى الإحياء (١/٢٧٠) .

(١٦٢) أورده الغزالى فى الإحياء ، فى كتاب الصلاة ، والأثر مما يروى عن علىّ بن الحسين انظر الإحياء (١/٢٧٠) .

(١٦٣) الخنا : أصله من الخَنْى وهو الفُحشُ ، يقال : أخنى الرجل فى كلامه إذا أفحش والمقصود القول الفاحش .

ويحفظ ويتحفظ ، ويغض البصر ، فمن لم يفعل ذلك فإن الله تعالى يقول : لا حاجة بأن يدع طعامه ، وشرابه »[١٦٤]. فهذا فضل مابين الرجلين : أحدهما : يرعى جوارحه فى صومه ، ويتحرى طعام إفطاره ، ويتفقد جميع أحواله ، فهو أوزن عملا ممن يدع فى صومه الطعام ، ولا يتورع فى صومه عن الآثار ، وعساه يفطر على ألوان الشهوات الممتزجة بالسُّحْت ، والبتعات فالله أعلم بحاله وحال صومه . وبلغنا أن رسول الله ﷺ قال : « **لو صليتم حتى تكونوا كالحنايا ، وصمتم حتى تكونوا كالأوتار ، ما يقبل ذلك منكم إلا بورع صادق** »[١٦٥] ألا فراقبوا الله وحافظوا على حدود الدين بصدق الورع ، وفقنا الله وإياكم لكل خير برحمته .

الباب الرابع والعشرون
استكثار النوافل لإكمال الفرائض

إخوانى : وإذا تطوع الناس بالصوم ، والصلاة طلبا للثواب ، ألا فقدموا النية فى استكثار التطوع لإكمال الصلاة المفروضة فإن فيها خللاً كثيراً ، فإن أمنية العاقل من جميع أعماله بره ، ونوافله أنه يكمل بها فرائضه . فإنه بلغنا « **أن على جهنم جسوراً يُسأل العبد عند أولها فإن سلم إيمانه من النفاق ، والرياء ، والشك ، والعُجْب نجا وإلا فإنه يتردى فى النار . ويسأل فى الثانى عن الوضوء ، والغسل من الجنابة ، والصلاة ، والصيام فإن جاء بها تامات ، وإلا تردى فى النار . ويسأل فى الثالث عن الزكاة ، والحج ، والعمرة فإن جاء بها تامات ، وإلا تردى فى النار** »[١٦٦]. أعاذنا الله ، وإياكم من النار . وبلغنا أن بعض الصحابة قال : « **أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة الصلاة المكتوبة . فإن أتمها وإلا قيل له : انظروا : أهل له من تطوع ؟ فإن كان له تطوع أكملت الفرائض من تطوعه فإن لم تكتمل**

---

(١٦٤) أخرجه الطبرانى فى الصغير والأوسط عن أنس بن مالك ، انظر مجمع الزوائد للهيثمى (١٧١/٣) ، وابن الأثير فى النهاية فى غريب الحديث والأثر (٨٦/٢) .

(١٦٥) أورده الغزالى فى الإحياء (٨١٤/٢) عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما .

(١٦٦) أخرجه البخارى فى صحيحه مطولاً عن أبى هريرة ، انظر صحيح البخارى : كتاب الرقاق باب الصراط جسر جهنم ، وحديث رقم (٦٥٧٣) ، وكتاب التوحيد حديث رقم (٧٤٣٧) ، ومسلم فى صحيحه أيضا كتاب الإيمان حديث رقم (٣٠٢) ، (٣١٦) ، وكتاب الحيض رقم (٣٤) ، وأبو داود فى سننه كتاب الأدب ، باب رقم (٣٦) ، وأحمد فى المسند (٢٧٥/٢ ، ٥٣٤) ، وأورده القرطبى فى التذكرة ص (٣٨٤) كلهم بنحوه .

الفريضة ، ولم يكن له تطوعٌ أخذ بطرفيه ، وألقى فى النار »[١٦٧] أعاذنا الله وإياكم من ذلك . وبلغنا أن الله جَل ثناؤه يقول : « **لَن يَنْجُ مِنّى عبدى إلا بأداء ماافترضت عليه** »[١٦٨]. إخوانى : فأيقنت أنى مطلوب بفرائضَ لم تتم ، ولا قرابتِ التمام ، ووجدت من النقص فى التطوع أضعاف نقص الفرائض ، وضقت لذلك ذَرْعاً ، وخشيت أن لا تكمل فريضة مُضَيّعَة اتحدت بنوافل أضيع منها ، وكيف يصلح ثوب قديم البِلى بالخرق البالية فأيقنت من عملِ خِلافِ التمام ، وأشفقت أن أتردّى مع المتردين فيها ، فأصبحت مضطرا إلى الفرائض بكمالها ، فقيراً إلى التطوع لإتمام ما انتقص من حدودها ، شديد الحاجة إلى اكتساب البِر لتكفير مساوئها ، فأنا فى شغل عن طلب الثواب على النوافل ، وقد ضيعت كثيراً من حُدودِ الفرائض ، فتدبروا أمركم فإن يكن الذى حل بى من التفريط حلّ بكم بعضُه فاستكثروا من النوافل لإكمال الفرائض ! فإنه بلغنا أن الله جل ثناؤه لا يقبل نافلة حتى تؤدى الفريضة . وبلغنا أن نقصان الفرائض يكمل عَدّا بالنوافل إن كان فى نوافلكم وفاء ، وكذلك نقصان الزكاة يكمل بالصدقات إن كان فى صدقاتكم وفاء ، وكذلك سائر الأعمال[١٦٩]. وبلغنا « أنه إذا انتقص من حدود الله من فرائضها شيئاً كمل بنوافلها » فأما العاقل المعظم لحدود الله تعالى فإن كان شديد الرغبة فى النوافل ، فالغالب على قلبه ، وهمته أداء الفرائض لربه عز وجل ، وإكمالها بكثير من أعمال البرّ لإكمال البرّ . لا يستكثرها ، ولتكن أمنيته ونيته إكمال حقوق الله عز وجل ، وإشفاق من نقصها فهو أفضل العقل ، وأحسن النية وأعلى وأوزن عملا . وقد نعتهم رسول الله ﷺ فقال : « **ألا وإن العاملين هم العلماء بالله ، الفقهاء عن الله ، الذين عقلوا عنه ، وأدوا إليه ما له ، قِبَلَهم لم تتبع أنفسهم مالَهم عند الله ،**

---

(١٦٧) أخرجه ابن ماجه فى سننه عن تميم الدارى ، حديث رقم (١٤٢٦) ، والحاكم فى المستدرك ، وقال : صحيح على شرط مسلم ، ووافقه الذهبى ، انظر المستدرك (٢٦٢/١) ، والديلمى فى الفردوس عن تميم الدارى ، وأبى هريرة حديث رقم (٩) .

(١٦٨) أورده الغزالى فى الإحياء ، وقال الحافظ العراقى : حديث : « لا ينجو منى عبدى إلا بأداء ما افترضت عليه » لم أجده ، انظر الإحياء (٣٠٩/١) .

(١٦٩) أخرجه أبو داود فى سننه ، عن أبى هريرة ، كتاب الصلاة : حديث رقم (٨٦٤) ، وابن ماجه فى سننه ، كتاب : إقامة الصلاة حديث رقم (١٤٢٥) ، والنسائى فى سننه : كتاب الصلاة ، « باب المحاسبة على الصلاة » (٢٣٢/١) ، وأحمد فى المسند بتمامه عن يحيى بن يعمر عن رجل من أصحاب رسول الله ﷺ ، انظر المسند (٦٥/٤ ، ١٠٣) و(٣٧٧/٥).

أولئك هم صفوة الله من خلقه »[١٧٠]. فهذا فَضْلُ مابين الرجلين ! أحدهما : همته وأمنيته أن يكمل أعمال مولاه ؛ أثابه على ذلك ، أو لم يثبه . والآخر مثل الأجير السوء يطلب الكِراءُ[١٧١] وقد أفسد أعمال من استأجره ، وهو بالعقوبة أولى ، وهو دائماً يطلب الكِراء بما يستوجب العقوبة . وبلغنا أن بعض أهل العلم قال : إن قوماً عملوا أعمالاً من الطاعات فلما صاروا إلى الله التمسوا ثواب أعمالهم فوجدوا الله قد أحصى عليهم مثاقيل الذرّ فبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون . إخوانى فلتكن إرادتكم فى استكثاركم النوافل ، لإكمال الفرائض ، فإن ذلك أفضل النيات وأكرم الهمم ، وأوفقها لمحبة الله عز وجل ؛ ولذلك فاق القوم بعضهم بعضًا ، وتفاضلوا فى الدرجات . وفقنا الله وإياكم لكل خير برحمته ، آمين يارب العالمين .

الباب الخامس والعشرون
استكثار البِرّ لمحو السيئات

إخوانى : وإذا عمل الناس لعلو الدرجات ، فلا تجهلوا أموركم وقدِّموا النية فى استكثار البر لمحو السيئات ، ووجلاً من عواقبها . فإنه بلغنا أن بعض أهل العلم قال : « **إن أعقل الناس من خاف ذنُوبَه وإن قلَّت** » . وقال بعض الصحابة : « **وددت أنى انقلعت عينى ، وأن الله غفر لى ذنباً واحداً** » . وبلغنا أن بعض أهل العلم قال : « **إنكم تسألون الجنة هيهات !. حَالَ ذكرُ النارِ دون الجنة** »[١٧٢] يقولها إشفاقاً من عقاب المساوىء . فهذا فضل ما بين الرجلين : أحدهما مشفق مجتهد فى رضوان الله عز وجل ، وهمته فى النجاة ، والآخر يتمنى الدرجات ، وقد ضيَّع الواجبات ، واستوجب العقوبات . ألا فلتكن النية فى اكتساب الحسنات لمحو السيئات ، فإن ذلك أفضل وأعلى ... وهب الله لنا ولكم عملاً نافعاً .

---

(١٧٠) سيأتى تخريجه .

(١٧١) الكراء : أجر المستأجر .

(١٧٢) يقصد أن خشيته من عذاب النار لم تدع له مجالاً للتفكير فى نعيم الجنة .

الباب السادس والعشرون
الورع عن محارم الله

إخوانى : وإذا عمل الناس بالبر ، وفى ذلك ينغمسون فى الآثام ، ويخلطون عملاً صالحاً وآخر سيئاً يؤملون محو المساوىء بالحسنات ، ألا فراقبوا الله . إخوانى ، وتطهروا من السيئات بالإنابة منها ، والندم عليها ؛ فإن الإنابة أبلغ فى رضوان الله ، وأطهر لكم وأمحق للذنوب من الحسنات مع التلوث فى السيئات . فإنه بلغنا أن بعض أهل العلم قال : « **أفضل العبادات : أداء الفرائض واجتناب المحارم** »[١٧٣] : وبلغنا عن بعضهم أنه قال : بلغنى أنه : « **يلتقى الرجلان أحدهما أكثر صوماً وصلاة مستقيم منيب إلى الله تعالى . قالوا : وكيف يكون ذلك ؟ قال : يكون أورعهما عن محارم الله** » فهذا فضل ما بين الرجلين . وقال بعض أهل العلم : « **من أحب أن يسبق الدائب المجتهد فليكف عن الذنوب جهده** »[١٧٤] . يا قوم فتقربوا إلى الله بالتقوى ومجانبة الآثام ، فإن المجانب للحرام أحظى عند الله وأعلى من المتعبدين إذا خلطوا – وإن عملوا الصالحات – فهم دون المراقبين له ؛ فاجعلوا أعظم الرغبة فى الورع عن محارم الله ، وترك الخلاف عليه ، فإنَّ أكرمكم عند الله أتقاكم ، وإنما يتقبل الله من المتقين ، جعلنا الله وإياكم كذلك .

الباب السابع والعشرون
الإسرار بالدعاء

إخوانى : وإذا أعلن بالدعاء فأسروا دعاءكم فيما بينكم وبين الله تعالى ، فإن ذلك أبلغ وأوفق لمحبة الله عز وجل وأجزل للثواب . وقد بلغنا « **أن دعاء السر يزيد على دعاء العلانية بسبعين ضِعْفاً** » وقال بعض أهل العلم : لقد كان المسلمون يجتهدون فى الدعاء وما يسمع لهم صوت ، إن كان منهم إلا همساً بينهم وبين ربهم . وذلك أن الله عز وجل ذكر عبداً صالحاً ، ورضى قوله ؛ فقال عز وجل : ﴿ **زَكَرِيَّا . إِذْ نَادَى**

---

(١٧٣) أورده الغزالى فى الإحياء ، قاله سهل التسترى (٨١٥/٢) .

(١٧٤) أخرجه أبو نعيم فى (الحلية) عن عائشة مرفوعًا ، وقال : غريب ، تفرد به يوسف عن عطاء . (٤٠٠/١٠) .

رَبَّهُ نداءً خَفِيّاً[175] ﴾[176] فهذا فضل ما بين الرجلين : أحدهما يجهر بدعائه ، فإن كان فى ملأ تعرض للفتنة ، ورضى بأقل الثواب . والآخر يخفى ويتضرع ، فكل دعاء المخبتين[177] خفية وتضرعاً ، جعلنا الله وإياكم كذلك .

الباب الثامن والعشرون
إحضار القلوب مع الألسن

إخوانى : إذا دعا الناس ربهم بالألسن ، وبسطوا الايدى ، وقلوبهم عنه ساهية ؛ ألا فأحضروا القلوب مع الألسن ، فإنه أبلغ . وبلغنا أن بعض الصحابة قال : « **إن الله عز وجل لا يستجيب لعبد دعاه عن قلب غافل** »[178] . وقال بعضهم : « **إن الله لا يسمعُ مِنْ ساهٍ** » . وقال بعضهم : « **إن الله لا يسمع من داعٍ ، إلا داع دعا من فيه وقلبه** » ياقوم فراقبوا الله ولا تحرموا أنفسكم إجابة الدعاء بالغفلة عن الله ، وتضرعوا إليه بالقلوب مع الألسن ، فقد وعد الكريم عز وجل إجابة المضطر إذا دعاه[179] ، فهذا فضل ما بين الرجلين : أحدهما داعٍ بلسانه ، وقلبه غافل عن الله ساه . والآخر وجل يتضرع بقلبه ولسانه . جعلنا الله وإياكم من الوجلين . آمين .

الباب التاسع والعشرون
التدبر والاعتبار عند التلاوة

إخوانى : وإذا تلا الناس كتاب الله لفضل ثوابه ، ألا فأريدوا بتلاوتكم التدبر والاعتبار بأمثاله وعجائبه ،ووعده ووعيده ، وأمره ونهيه ، وحلاله وحرامه ، والعمل بحدوده وفرائضه ؛ فإن ذلك أبلغ فى رضوان الله تعالى . وقد روى فى قول الله عز وجل : ﴿ **الذين آتَيْنَاهُمُ الكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاَوَتِهِ أُوْلئكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ** ﴾[180] .

---

(١٧٥) إن : بمعنى ما . أى : ما كان الدعاء منهم إلا همساً . وكمال الآية : ﴿ ذكر رحمتِ ربك عبده زكريا ﴾ .
(١٧٦) مريم : ٢ ، ٣ .
(١٧٧) المخبتون : الخاشعون المتواضعون وفى الكتاب العزيز : ﴿ وأخبتوا إلى ربهم ﴾ وفيه ﴿ وبشر المخبتين ﴾ .
(١٧٨) أخرجه أحمد عن عبد الله بن عمرو مرفوعًا ، بلفظ : « إن الله لا يستجيب لعبد دعاه عن ظهر قلب غافل » . انظر (المسند) (٢/١٧٧) . وأخرجه الطبرانى عن ابن عمر ، قال الهيثمى : فيه بشير بن ميمون وهو مجمع على ضعفه . انظر (مجمع الزوائد) (١٠/١٤٨) .
(١٧٩) كما قال سبحانه ﴿ أمّن يجيب المضطر إذا دعاه ﴾ (النمل: ٦٢) .
(١٨٠) البقرة : ١٢١ .